بين العامية والفصحى

د. عمار ويس
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة منتوري قسنطينة

تعد ثنائية العامية والفصحى من الظواهر اللغوية والاجتماعية التي تعرفهـــا وعرفتها كل المجتمعات، ذلك أن الأمر عائد في جوهره إلى طبيعة هذه الأداة-أعني اللغة-في نشأتها وتطورها وكيفية نموها ضمن ما طوره الإنسان من أنشطة مادية أو معنوية

إن هذا التأمل في نشأة اللغة يقودنا إلى أن الإنسان انطلق من عـــدد مـــن الأصوات يسميها علماء اللغة الفونيمات وركب منها عددا من الكلمات بحكم أن المجتمع البشري بحاجاته وعلاقاته جعل الإنسان يولد من الوحدات الصوتية نـــسقا إشاريا هو اللغة البشرية على قدر لا نهائي من المرونة والسعة والقابلية للتطور[1]

ولأن هذه الأصوات في حد ذاتها غير قادرة على الوفاء بحاجات الإنـــسان التي تنمو وتتعقد مع نمو وتشكل المجتمع" فإن الإنسان وفاء بحاجات نشاطه العلمي الاجتماعي قد بنى الكلمات من تلك الوحدات الصوتية القليلة، عشرا ت الآلاف من الكلمات التي تتألف فيها أعداد لا حصر لها من الجمل والعبارات"[2]

وبازدياد التنظيم الاجتماعي تطورا وتعقيدا، وبازدياد النـــشاط الإنـــساني تفرعا وتخصصا صار لزاما أن ترتقي اللغة البشرية إلى مستوى أرفع من الكلمـــات والأسماء المتناثرة الدالة على مفردات ثابتة لتعبر عن الأحاسيس المختزنة ومما يعكس طورا متقدما في هذا المجال:"اغتنت فيه الخبرة البـــشرية وارتقـــت أدوات العمـــل وتعقدت علاقاته ووعى الإنسان كثرة من ظواهر العالم وجزئياته فنشأت الحاجـــة العلمية إلى الارتقاء اللغوي من مجرد التسمية المرتبطة بشيء مفرد والجامدة عنـــد موقف ثابت إلى المفهوم الدال على مجموعة من الأشياء بينها جامع أو على مجموعة من المواقف تجمعها علاقة"[3]

في هذا السياق تندرج نظرة كثير من الباحثين في اللسانيات الوظيفية وهم يركزون على هذا الجانب الحيوي بلغة في متابعتها الوفاء بحاجيات المجتمع أو فلنقل بحاجيات مستعمليها كما يلاحظ ذلك أندري مارتينيه إذ يقول وهو يتحدث عن

اللغة:" حين نفحص من جهة وظيفتها وطريقة عملها مؤسسة –بناء– كاللغة فإننا لا يجب أن لا نتغاضى عن واقع أنها تهدف إلى إشباع حاجيات ولما كانت هذه الحاجيات تتغير على مر الزمن، فإن المؤسسة أي اللغة لا تملك إلا أن تتأقلم لتستمر في تأمينها. ولما كان واقع الحال يفيد أن حاجيات مجموعة ما تتجدد باستمرار وإن تغيرت وتيرة التجدد من فترة لأخرى– سوف نخطئ إن لم نأخذ بعين الاعتبار ذلك"[4]

على ضوء هذا الموقف المرتكز في الدراسة إلى ديناميكية اللغة ينتقل أندريه مارتينيه إلى ملاحظة:" أن الشكل التعاقبي الصارم الذي تقدم به اللغة لا يجب أن ينسينا أن الحقيقة اللغوية في حركة مستمرة وأن الفكرة التي نكونها عن اللغة يجب أن لا تخفي هذه الديناميكية الدائمة وإذا لم يشعر مستخدمو اللغة بذلك فبغرض التواصل وتسهيل الاتصال، ولذلك يتم التغاضي باستمرار عن هذا الجانب مما يجعلنا نقبل من الآخر كلمات وأشكالا من التعبير لا نستعملها"[5]

إن هذا التنوع في استعمالات الأفراد ومن داخل اللغة الواحدة هو ما سيكون تكئة لنا للبحث في الأشكال اللغوية وهي تفترق من الاستعمال الرسمي المشترك كما تجسده القوانين اللغوية العامة وشكل الكتابة المتفق عليه، للحديث عن اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ذلك أن اللغة المنطوقة لا تتقيد بالضوابط التي تتقيد بها اللغة المكتوبة مما يفسح المجال لممارسات لغوية من مظاهرها الفروق في استعمالات الأفراد للغة المشتركة وتباين المجموعات داخل الجماعة اللغوية مما يؤدي إلى إفراز ظاهرة اللهجات. كما أن اللغة المنطوقة غير المنضبطة وغير الملتزمة بقواعد الكتابة الرسمية المشددة بالقوانين البنائية والدلالية والفنية فيما يعرف باللغة العامية أو لغة العامة وعموم الشعب.

إن مايبرر هذا الطرح أن أي لغة تقدم وتمارس وفق ثلاث مهارات تشكل جانبين اثنين من حياة اللغة. أعني مهارة الكلام بشكل طبيعي ومهارتي القراءة

والكتابة الناجمتين عن عملية مران وتعلم ولأن الترتيب الزمني يحيلنا إلى أولوية اللغة المنطوقة فإن هذه اللغة المنطوقة منظور إليها في تعارض مع اللغة مقروءة أو مكتوبة يشكل دعامة طرح مسألة العامية حيث:" يمكن التاريخ للمنطوق بملايين السنين وبالكاد فقد مرت آلاف السنين على استعمال أشكال تتوافق إلى حد ما مع بعض ملامح بعض اللغات"[6]

إن هذه الأرضية النظرية التي تثبت أن العامية ظاهرة أصيلة وطبيعية في المسلك اللغوي عند الإنسانية قاطبة، هي التي فتحت الباب لدراسة هذه الظاهرة ومحاولة التعامل معها إيجابيا حتى تبقى مصدرا من مصادر حيوية اللغة أي لغة كانت رغم أن بعض الدراسات حاولت أن تستغل هذه الظاهرة لتقوم بعملية تهديم للغة الرسمية أو الفصحى على أساس فطرية اللغة العامية في مقابل اصطناع وتصنع اللغة الفصحى والحقيقة أن الحق لا يكمن في عفوية هذه وتعقد تلك وبقدر ما يتعلق الأمر بمواقف أيديولوجية مسبقة لبست لبوس العلم. ذلك أن ضرورة التواصل والاتصال بين أفراد المجتمع تقتضي التواضع والاتفاق على قوانين تحكم أي نشاط إنساني بما في ذلك فعل الكلام أو بناء صرح لغوي أو مؤسسة على حد تعبير أندريه مارتينيه. وعلى هذا الأساس فإن العلاقة بين العامية والفصحى هي علاقة أطوار يعيشها الجسم الواحد، ولا يتعلق الأمر البتة بجسمين منفصلين غريب أحدهما عن الآخر.

و يكفي للتأكد من هذه الحقيقة ملاحظة الضوابط التي تتحكم في اللغة العامية من حيث أنها تعود إلى متن لغوي واحد، كما أنها تلتزم القواعد و العلائق اللغوية بين ألفاظ الجملة من حيث الفاعلية و المفعولية و النعت و التقديم و التأخير و التذكير و التأنيث و الإفراد و الجمع و غير ذلك مما يعتري اللغة المشتركة من ضوابط و يبقى الفرق الوحيد تقريبا كامنا في الجانب الصوتي المتحرر من قيود الأصوات المقيدة بحركات، الأمر الذي يدخل الروع بوجود تباين بين العامية

والفصحى و يطرح إشكال كتابة العامية، و هي كتابة حسم شكلها على مر القرون بما يسهل التلاؤم بين الشكل الملفوظ و المنطوق للكلمات و بين الرسم المجسد للكلمات. مما يفتح الباب أمام ثغرات لازالت تعانيمنها بعض اللهجات التي لم ترق ترق بعد إلى مصاف اللغة. لأن الشكل الذي ارتضاه أصحاب كل لغة جاء لحل إشكالات و تفادي تداخلات بين الكلمات خاصة إذا لم تكن مشكلة فقولنا ولدا على التنوين و في موقع المفعول به قد يختلط مع الفعل ولدن المنسوب لفاعل في حال الجمع منسوبا إلى النساء. وقولنا جبلا في الوضع نفسه قد يختلط مع الفعل جبلن في الظرف نفسه. و على هذا فإن ضبط الجانب الصوتي من اللغة و تقييده بالحركة الدالة على موقعه و اصطناع آلية في الكتابة تحول دون التداخل بين الكلمات و لم يأت هكذا عبثا. و تبقى الحقيقة المتحكمة في معالجة هذه القضية معالجة سليمة هي الانطلاق من أن الإنسان نطق قبل أن يقرأ أو يكتب فلا غضاضة و الحال هذه أن تبقى العامية و لسهولة و يسر التخاطب لغة تعامل يوحي لما توفره من جهد في الاتصال بالتخفف من قيود الفصحى رغم بقاءها عنصر حيوية تمد الخيال و الفكر. دون أن تدخل في تعارض مع اللغة الرسمية الرصينة و إلى هذا ذهب الأستاذ محمود تيمور حين يقول:" و يجمل بنا أن نشير إلى أن اللغة التي يكتب بها الأدب الحديث هي العربية الفصحى و قد أخفقت كل المحاولات التي أريد بها تسويد اللهجات العامية في البلاد العربية، و جعلها لغة كتابة كما هي لغة تخاطب و حديث. هذا مع أن اللهجات العامية أسهمت في التعبير الأدبي في الأغاني و الأناشيد و الأزجال و الحوار القصصي و المسرحيات المحلية و نبغ في أدب اللغة العامية أدباء مثل الزجال بيرم التونسي و الشاعر أحمد رامي إذ قدموا إنتاجا فيه حرارة و حيوية و فيه سمو فني و فيه استلهام من البيئة الشعبية و استجابة لما فيها من مشاعر و أحاسيس. و لكن هذا الأدب العامي يقتصر الآن على المسرحيات المحلية و التمثيليات السينمائية و الإذاعية و ما إليها من أغنيات وأناشيد

و كاد يمحى من حوار القصص المكتوب بالفصحى و لعل انحصار الأدب العامي في هذا النطاق مرده إلى أن هذا الأدب لم يستطع أن تظهر فيه عبقرية بيانية تفرض نفسها لتزاحم بيان الأدب الفصيح و تكاد الدلائل كلها تجمع على أن المستقبل للفصحى و أن الفرص التي أتيحت من قبل لإحياء اللهجات العامية في نطاق ينفسح أو يضيق تقل الآن و تتزايل بسبب انتشار التعليم و الصحافة و الإذاعة و دعم وسائل الاتصال بين البلاد العربية و هيمنة الوعي العام لتوحيد اللغة و الحد من اختلاف اللهجات في الوطن العربي الكبير"[7]

إن حديث الأستاذ تيمور يقدم توصيفا لحالة التطلع الجماهيري الناجم عن الانفلات من ربقة الاستعمار و الرغبة في التحرر التي تشترك العامة و الخاصة في التعبير عنها بالوسائل المختلفة، كما أن موجة المد الجماهيري و الرغبة السياسية في الاتصال بهذه الجماهير دفع ببعض المؤسسات كالصحف و دور المسرح و الإذاعة تعمد إلى العامية وسيلة للإبداع و مخاطبة الشعب دون أن يغيب عن بالنا محاولات الاستعمار على يد عدد من المستشرقين للترويج للغة العامية على حساب الفصحى في محاولة لإحداث شرخ في الشخصية العربية مستغلين ما أسماه بعض الباحثين ديناميكية اللغة العامية أو العنصر الديناميكي في أي لغة.

يحيلنا كلام الأستاذ محمود تيمور إلى الرصيد الفني الهائل الذي تتمتع به الجزائر و في مختلف اللهجات التي تتوزع مناطق الوطن، و لعل البداية تكمن في ذلك الرصيد الهائل من الأغاني الشعبية التي عبرت عن آمال و طموحات الشعب في أثناء الحقبة الاستعمارية، و إننا نذكر بانفعال عددا من الأغنيات التي رافقت المجاهدين في جبالنا أثناء حرب التحرير المظفرة و بخاصة تلك التي سبقتها و سجلت الحوادث الجسام التي رسمت ملامح تاريخنا في جانبه المأساوي كأحداث 8 ماي 1945 و ما أفرزته من رثائيات عامة أو في جانبه البطولي و هي ترسم ملاحم

أبرز أبطال الثورة التحريرية. و هذه الآثار في مجملها استجابة انفعالية فطرية طبيعية تجاه الأحداث و تجاه العادات و التقاليد. على أن الآثار الأدبية لم تتوقف على هذه الأغراض الكبرى بل إننا نجد تسجيلا رائعا لتجارب عاطفية رفعها الأدب الشعبي بلغة عامية إلى مستوى الرمز كالرثائية الغزلية المشهورة لحيزية لصاحبها ابن قيطون أو أحاديث التاريخ التي تناولت بطولات الصحابة رضي الله عنهم أو سير الأبطال المقاتلين كسيرة بني هلال. و غير ذلك من الألوان الأدبية التي ترافق أفراح و أتراح الشعب و تؤطر حياته في كل صغيرة و كبيرة تعرض للإنسان مما يكشف عن كنز من الخيال يتضمن حيوية و حركية تبدأ فردية أو لدى مجموعة ما لتستقر في شكل عام تنتظمه اللغة الرسمية المشتركة لمجتمع ما أو شعب ما أو دولة ما.

إلى مثل هذا التحليل للفرق الإيجابي بين اللغة و اللهجة ذهب أكثر من باحث كالدكتور حسان تمام حين يقول:" فإذا كانت اللهجة كلاما فاللغة هي الأسس التي تراعي في النطق باللهجة. اللهجة شكل من أشكال تنفيذ اللغة. و اللغة مجموعة من الشروط و القواعد التي تراعى في إحداث هذا الشكل..... و لكون اللهجة كلاما من جهة ثم لكون الهدف من الكلام هو التعبير عن المعنى الكامل من جهة أخرى، لابد أن تكون وحدة اللهجة هي الجملة المفيدة إفادة تامة..... فالجملة إذن هي الوحدة التي تتكون اللهجة فيها أما الوحدات التي تتكون منها اللغة أي النظام اللغوي المتعدد الأجهزة فهي القسم من أقسام كل جهاز من هذه الأجهزة، كالحرف في الجهاز الأبجدي، و الصيغة من الجهاز الصرفي، و الباب من الجهاز النحوي و هلم جرا."[8]

يضيف حديث الدكتور حسان تمام إلى الوشائج التي أشرنا إليها و التي تربط العامية بالفصحى خصيصة تتعلق بطبيعة المفهوم و الفرق بينهما مما يجعل التناقض و التضاد أمرا غير وارد البتة، كما يفسر لنا تعدد اللهجات في داخل اللغة الواحدة كما هو الشأن عند العرب في الجاهلية من تعدد اللهجات مع وحدة اللغة

و ذلك لانعدام وسائط الاتصال اليومي بين القبائل العربية اللهم ما تتيحه الأسواق السنوية كسوق عكاظ و غيرها مما أدى إلى تذويب اللهجات في لهجة واحدة هي لهجة قريش التي كانت في حقيقتها ممارسة في إطار لغة متعارف عليها. هي اللغة التي جسدها الشعر الجاهلي و كرمها الله بنزول القرآن بلسانها.

لهذه الأسباب فإن اللغة شيء و اللهجة شيء آخر و لكنهما ليستا منفصلتين بالقدر الذي يظن و لكون اللغة:" مجموعة من الأسس و أصول الصياغة فهي لا تنطق كاللهجة و لا يعبر عنها المتكلم و إنما الذي يعبر عنها هو الباحث. إن السامع يسمع اللهجة و لا يسمع اللغة أو بعبارة أقرب إلى الفهم يسمع الكلام باللغة و لا يسمع اللغة نفسها، لأن اللغة ليست إلا مجموع ما في الأشموني مثلا و لا أظن أحدا ينطق ما في الأشموني و إنما يتكلم على ضوئه. و قد قال علماء اللغة إن اللغة مستودع صامت."[9]

من هذا المنطلق و لما كانت اللغة حالة من الثبات ضمن نظام معين و كانت اللهجة حركية تمارس داخل هذا النظام فإن عنصر التغير و الصراع يطال اللغة من داخلها و لذلك كما يقول الدكتور هادي نهر:" دخلت العربية في صراع داخلي مع نفسها حين تعددت لهجاتها بفعل اختلاف البيئات العربية و ما صاحبه من اتجاه الألسنة إلى الاختلاف بين القبائل في النطق و قد ازداد هذا الخلف بتفرع القبائل، حتى وصل إلى الألفاظ و معانيها. فكان ذلك إيذانا بتعدد اللغة المشتركة إلى لهجات يبتعد بعضهاعن بعض بظواهر عديدة منها الصوتي و منها الدلالي ومنها التركيبي. و قد اضطرت القبائل إلى الاتصال فيما بينها لتبادل المنافع من تجارة و غيرها فاجتمعت في الأسواق و اتصلت عند شن الغارات مما أوجد سبيلا لتصارع اللهجات...... و مازالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية التغلب آخر الأمر لأسباب هيأت لها سبيل النصر."[10]

يلاحظ الباحث في هذا الموضوع – موضوع العامية و الفصحى– توافقا بين آراء العلماء في هذا الباب من حيث أن الإنسان ينطق أو يمارس الكلام والاتصال في ظروف محددة تربطه بمجموعته المباشرة. غير أن الاتصال بين المجموعات المختلفة لدواع متعددة لا يلبث أن ينجم عنه صراع بين اللهجات ينتهي بالتفاق و التواضع على نظام لغوي يتشكل من عدد من الأجهزة التي تشكل نظاما لغويا تمارس به و من داخله المجموعات المختلفة لهجتها أو مسلكها اللغوي بميزاته الصوتية و الدلالية أو التركيبية أحيانا أخرى و لا تترك سنة التطور الأمور على حالها آمنة راكدة، لأن حاجة المجتمع إلى التعبير عما يصادفه من تحديات خلق خروقات جديدة يتعين على النظام اللغوي استيعابها و تنظيمها و إلا بقيت حالة من الممارسة تعيش خارج النظام فيقع الانفصام بين الممارسة و النموذج العام. كما هو الشأن حاليا بين العامية و الفصحى.

إن خلاصة الآراء السابقة تفيد بوجود وضعين لغويين يمكن تصورهما والتعبير عنهما كوجهين لعملة واحدة ولعل ما يفيد في هذا الباب قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به العرب في بواديها وتسل به الضغائن من بينها"[11] إذ يشير إلى جزئية الخطاب الشعري ويعتبره جزءا من كلام العرب وليس كل كلام العرب، ومعنى ذلك أن الكلام كانت له مستويات أو على الأقل مستويان، المستوى المشترك الذي كان يلزم نواميسِ اللغة المشتركة وارتقى إلى درجة الشعر صياغة وفنا وتخييلا والمستوى الخاص بكل مجموعة في حدود تضيق أو تتسع بحسب ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية واتصال الناس وتقاربهم أو تنافرهم وتباعدهم.

إذن لم تكن العرب تتكلم لغة واحدة مشددة منضبطة بقوانين مطردة بل كانت لها إلى جانب لسانها العام ألسنة مختلفة متباينة سواء من الناحية الصوتية وطريقة نطق الحروف أو من الناحية الدلالية، وهذا ما يفسر اختلاف القراءات فيما

بعد والتي قريء بها القرآن الكريم وما يفسر كذلك تعدد اللهجات العربية وكثرة المترادفات في اللغة وشيوع الكلمات الدالة على الشيء ونقيضه. الأمر الذي يفسر استمرار هذه الفروق حتى بعد تغلب لهجة قريش على سائر اللهجات حين حسمت الأمر على المستوى الفني إذ نظم الشعر العربي في الجاهلية بها، كما عززها نزول القرآن باللغة التي جسدها الشعر.

رغم هذا التوحد اللغوي الذي جسده القرآن الكريم والشعر إلى أن فروقا بين الممارسة اللغوية بقيت تلح في مجالات أجملها الدكتور عبد الواحد وافي في بعض المظاهر

- مظاهر الاختلاف في الأصوات كإبدال الهمزة في "أن" عينا في لغة تميم ويسمى ذلك عنعنة تميم... وقطع اللفظ قبل تمامه في لغة طيء ويسمى ذلك قطعة طيء يا أبا الحك في يا أبا الحكم. و لم يكن هذا مقصورا عندهم على المنادى وهذا الأسلوب منتشر كذلك في كثير من اللهجات العامية في مصر [12]

- مظاهر الاختلاف في القواعد (بنية الكلمات ووجوه الاشتقاق) كضم هاء أيها إذا لم يتلها اسم إشارة في لغة بني أسد (أيه الناس) وكسر أوائل الأفعال المضارعة في لهجة بهراء(تلتلة بهراء يضرب مكان يضرب وهذا الأسلوب منتشر في كثير من اللهجات العامية بمصر.[13]

- مظاهر الاختلاف التي تطال بعض المفردات:" ومن المفردات ما بقيت عند بعض القبائل في لهجاتها الأولى المدية وهي السكين عند دوس من الأزد والغبيط وهو مركب للنساء في لغة طيء وذو بمعنى الذي في لغة طيء"[14]

إن المظهر الأخير من مظاهر الاختلاف ناجم عن انغلاق المجموعات المكونة لمجتمع واحد وإذا تظافرت المظاهر الثلاثة المذكورة أنتجت ممارسة متباينة إلى حد يظن فيه بالاختلاف الكلي رغم وحدة المتن الذي تمتح منها اللهجات المختلفة في محيط جغرافي أو بشري معين.

إذا جاوزنا الجانب اللغوي للمسألة باعتباره ممارسة شفاهية وجدنا ضالتنا في الآثار المكتوبة كما تبين ذلك كتب التراث من خلال الأشكال الفنية التي اعتمدت النظام الموسيقي لتخرج به النظام الموسيقي كما جسده الشعر العربي أو حين اعتمدت أشكال الإبداع كالأغنية والمسرحية والقصة لتقدمها في لغة عامية غير اللغة الفصحى وكذلك الشأن حين عمدت إلى الكتابة الصحفية تخاطب الجمهور بما اعتقدت أنه أقدر على فهمه.

من المسلم به أن أي لغة إذا خرجت عن إطارها الذي اكتملت فيه صورتها بفعل الحروب أو الانتقال الجماعي والانتشار في مساحة واسعة صعب عليها الحفاظ على نقائها وعلى بنائها وأساليبها و إن تحققت لها الغلبة على اللغات المحلية.

هذا ما حدث للغة العربية حين انتشر مستعملوها واستوطنوا مساحات شاسعة جراء عملية الفتح ونشر الرسالة السماوية، فبدأ الضعف يدب إلى قرائح أهلها وتسلل اللحن إلى ألسنة أبنائها، ولعل هذا ما يفسر المحاولات المبكرة لجمع ألفاظ اللغة حفاظا على متنها ووضع قواعد نحوها حفاظا على بنائها ووضع قوانين موسيقية استخلصت من الشعر حفاظا على النسق الصوتي العام وتلا هذه المحاولات وضع القوانين البيانية حفاظا على المخيلة العربية والذوق العام للعرب فهل أفاد كل ذلك شيئا؟

لما كان الإنسان لا يتكلم اللغة وإنما يتكلم لهجته داخل اللغة فإن التطور لم يلبث أن أصاب اللغة الشعرية والنثرية على حد سواء فلقد تغير الموضوع الشعري في أوائل العصر العباسي تغيرا جذريا أصبح المتلقي إزاءه بحاجة إلى من يشرح له هذا الشعر وكأنه نظم بلغة غير اللغة العربية وذلك بفعل المعاني المستحدثة وطرائق التعبير عنها، كما شاع النظم في المعاني العادية السهلة المتناول كما فعل ذلك الشاعر أبو العتاهية مما قرب الشعر بشكل كبير من أحاديث العامة

أما الخرق الأكثر وضوحا فمس البناء الموسيقي للشعر بفعل الأعـاريض السهلة التي لجأ إليها الشعراء ولربط الشعر بالغناء في ألحان لسنا نـدري مـدى التزامها بالنظام الصوتي للغة العربية وبخاصة على يد الموالي، وكلما تقدمنا في الزمن لاحظنا أن عناصر الغلبة التي أفادت في انتصار اللغة العربية اضمحلت وأوشـكت على الزوال بانحصار نفوذ العرب وشيوع الجهل بين أصحاب السلطان بـالتوازي مع بدء نهضة اللغات القومية التي اتخذ أهلها في زمن السلطان العربي العربية لغة لهم مما أدى إلى جمود القرائح الشعرية وقوى الإبداع في الفن، الأمر الذي انعكس على حيوية اللغة ويصف جرجي زيدان هذا الوضع فيقول:" وفي هذا العصر نضجت الموشحات في الأندلس وتوسع أهلها في وصف المناظر الطبيعية ووضعوا فنا آخـر سموه الزجل، أحكمه وأقام عماده أبو بكر بن قزمان الأندلسي القرطبي المتوفى سنة 555هـ ويعرف بإمام الزجالين وسيأتي ذكره واستخدمت أهـل الأمـصار في المغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة نظموه بلغتهم الحـضرية وسمـوه عروض البلد استنبطه أبو عمير الأندلسي وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه أصـنافا سموه المزدوج والكاري والملعبة والغزل وغيرها".[15]

مع بدء النهضة وتفكك أوصال الدولة والمجتمع في كل بقاع العالم العربي قبل ذلك ساد جو من الجهل المصاحب لانهيار الحياة السياسية وصيرورة الحكم إلى الأتراك ظهر ذلك جليا في اللغة والتقى هذا الوضع مع الأفكار التحررية التي تأخذ بعين الاعتبار رأي ومشاعر عموم الشعب مع شيوع موجة من الحرية والانعتاق من القيود الاجتماعية والسياسية الفنية، كل هذه العوامل شكلت أرضـية احتـضنت التعبير العامي الذي شكل استجابة تأخر في التعبيرعنها الشعر الفـصيح لالتزامـه قيودا تكبحه في وزنه والفاظه وصوره وأخيلته ومضامينه ويسجل في ذلك جرجي زيدان فيقول:" وتكاثر في النهضة الأخيرة بمصر والشام الشعر العامي على الأوزان العامية وبعضها قديم كالزجل والمواليا وغيرها، مما تقدم ذكره في الأجزاء الماضـية

وبعضها أحدث من ذلك، فنقتصر هنا على ما حدث منه في سوريا ولا سيما لبنان، فالشعر العامي في سوريا نريد به ما ينظم في لغة العامة بلا ملاحظة الإعراب أو اللغة وأن يؤتى بالألفاظ كما ينطق بها أهل لبنان على الخصوص وفي هذا الشعر بلاغة خاصة وخيال خاص. وللشعر العمومي أوزان بعضها يشبه أوزان الشعر الفصيح وبعضها لا مثيل له في الأوزان المعروفة في هذا الشعر."[16]

إن ما يهمنا من هذا العرض التاريخي للتطورات التي طرأت على الموسيقى الشعرية هو إثبات هذه الازدواجية في التعبير الموسيقي التي يتجاذبها السكون كما جسدته القواعد والثبات كما رسخه الذوق والعادة من جهة والتوق نحو التغيير كما يفرضه البعد عن زمن وضع القاعدة والتطورات التي تلحق النظام الاجتماعي وتطبع الخلاق والتقاليد فتتجلى في شكل تطور حينا وفي شكل تمرد حينا آخر. مما يحيلنا إلى قانون عام يحكم النشاط الإنساني الذي ينطلق من الممارسة فيراكمها ثم يجنح إلى تنظيمها وتبويبها وتقنينها وضبطها ثم لا يفتأ حتى يطفق في تجاوزها وخرقها وإعادة النظر فيها بإضافة تراكمات لممارسة جديدة ستصبح بدورها قاعدة يتعين الالتزام بها ثم تجاوزها وتلك سمة الفكر الإنساني جمع لمواد البناء وتشييد البنيان ثم إعادة النظر فيه بتعديله أو بهدمه وهذا في اللغة ما عبر عنه أكثر من باحث وهو يشير إلى العنصر الديناميكي الكامن في اللغة أي لغة كانت.[17]

تقتضي الإحاطة بموضوع بحثنا النظر إلى العلاقة الداخلية العضوية التي تربط العامية بالفصحى محاولين أن نتلمس مدى قربهما أو بعدهما الواحدة عن الأخرى، وإذا كان أمر المتن اللغوي محسوما على أساس أن الإنسان هو مصدرا لممارسة اللغوية سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة ، مقيدة بقوانين تضبطها أو متحررة مستقلة عن تلك الضوابط.

لم تحظ اللهجات بدراسة جادة إلا في القرن التاسع عشر وستتبين أسباب ذلك فيما بعد، ولا نكاد نعثر على إشارة إلى اللهجات إلا من خلال الحديث عن

القراءات عند المهتمين بالدراسات القرآنية، أو حين الحديث عن اللحن عند النحاة وعلماء اللغة.ولعل أبرز مصدر للكتابة القريبة من العامية أو التي تكاد تكون كذلك كتاب ألف ليلة وليلة والأغاني الشعبية" و لم يعن العلماء بدراسة هذه اللهجات دراسة جدية إلا منذ القرن التاسع عشر،وقد قسموها إلى خمس مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة في أصواها ومفرداها وأساليبها وقواعدها ومتفقة في المؤثرات التي خضعت لها في تطورها، إحداها مجموعة اللهجات الحجازية والنجدية وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن، وثانيتها مجموعة اللهجات السورية وتشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، وثالثتها مجموعة اللهجات العراقية و تشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في بلاد العراق . و رابعتها مجموعة اللهجات المصرية و تشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في بلاد مصر و السودان وخامستها مجموعة اللهجات المغربية و تشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في شمال افريقيا.

في سياق حديثه عن هذه اللهجات غلص الدكتور عبد الواحد وافي الى مجموعة من الملاحظات منها:

-إن اللهجات العامية ليست كلها ذات أصول عربية .

و منها : -أن مجموعة اللهجات على اختلافها لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم.

ومنها : -أن لهجات البدو في كل مجموعة أقرب الى الفصحى من لهجات المدن لاحتكاك سكان المدن بالعناصر الأجنبية أدخل إلى اللهجة الكثير من الغريب عن الأصل العربي كلهجة .

ومنها : - أن أقرب اللهجات الى العربية الفصحى هي مجموعة لهجات نجد و الحجاز و أن أبعدها عن العربية هي اللهجات المغربية المستعملة في الجزائر والمغرب

بمناسبة حديثه عن اللهجة المغربية يقول الدكتور عبد الواحد وافي « قضية كذالك بضعة أشهر في الجزائر، و ماكنت لأستطيع التفاهم بسهولة الا مع المتعلمين ذوي الثقافة الفرنسية الذي كنت أتفاهم معهم بالفرنسية أو ذوي الثقافة العربية – وقليل ما هم– الذين كنت أتفاهم معهم بالعربية الفصحى . هذا و من أظهر ما يمتاز به كثير من اللهجات المغربية من ناحية القواعد انها تصوغ المضارع الى جميع المتكلمين على غرار مضارع الغائبين و المخاطبين فيقولون نكتبوا بكسر فكسر فسكون كما يقولون على نفس الوزن يكتبوا و تكتبوا وأنها تستبدل النون همزة المضارع للمتكلم المفرد و تصوغه في وزن يختلف عن وزن جميع المتكلمين فيقال نكتب بكسر فسكون بدلا من أكتب . وهاتان ظاهرتان منتشرتان في لهجة أهل الإسكندرية في الوقت الحاضر لتأثرها بلهجات أهل المغرب. »

أن أي باحث جزائري سيجد غرابة في ما ذهب إليه الدكتور عبد الواحد وافي ذالك أننا لا نعلم جهة من جهات الوطن تنطق فعل نكتب كسر فكسر وسكون ، بل الشائع و المعروف البدء بفتح فسكون . إضافة الى هذا فان الزمن يحدده السياق فيفهم الآخر أن حكم ه يتعلق بالماضي أو الحاضر ، على أن مسألة الماضي و الحاضر غير محسومة لتولي اللحظة الدالة على الزمن الماضي و الزمن الحاضر ، اللهم إلا إذا اعتمدنا فكرة الماضي البعيد و الماضي القريب كما هو معروف في اللغة الفرنسية ، أما استبدال همزة المتكلم المضارع بنون فهو في تقديرنا لون من اضغام ضمير المتكلم مع الفعل اقتضاه الميل الى سهولة الاستعمال على أن المعول عليه في التخاطب هو السياق الذي يفسر ما يحدث من تحريف صوتي أو بتر لأجراء اللفظة تسهيلا للنطق و التخاطب كما قلنا .

استكمالا لهذا البحث تجدر الملاحظة أن اللهجة العامية عاشت ظاهرة طبيعية من مظاهر المؤسسة اللغوية و لم يشعر المجتمع أو النخبة المثقفة أو علماء اللغة في أي مرحلة من مراحل التاريخ أن هذه الظاهرة قضية تحرر أو قضية صراع أو أنها

موقف فكري أو عقائدي عالق يستوجب البت فيه و أيجاد حل له ، لأمر قد اعتبر عن وعي أو لا وعي في حدود الأمور الطبيعية ، الى أن دخل على الساحة العربية عنصر جديد وفد مع الاستعمار نعني بداللك الصراع اللغوي بين العربية و اللغة الأجنبية الذي كانت كل مقوماته لغة المستعمر الذي تولي تأطير حياة الناس من الناحية السياسية و الإدارية مما فرض على الناس بذل جهد لفهم المصطلحات الإدارية و القانونية و السياسية التي بها معاشهم و على ضوئها تحدد مصالحهم وقضاء حاجاهم و يكفي أن يتمعن المرء آلاف الكلمات التي حاول المتكلم أن يضفي عليها وزنا عربيا أو نطقا عربيا عاميا يفيد في التفاهم و الاتصال ولكنه يخرج خروجا تاما عن القواعد و الصيغ المستعملة في الفصحى . و لقد تلبست هذه المعركة بلبوس آخر على يد عدد من المستشرقين و تحولت الى دعوة للعامية وتخاذها لغة بدلا من الفصحى في محاولة لمسخ شخصية الأمة ، ولعل أول عهد لهذه الدعوة كان على يد« الدكتور الألماني الجنس (ولهلم سبيتا) مدير دار الكتب المصرية وقتذاك ، و ذالك في كتابه « قواعد العربية العامية في مصر» الذي وضعه في الألمانية ونشره عام 1880 ، ففي هذا الكتاب الذي يعد أول محاولة جديدة لدراسة لهجة من لهجات العربية ، شبه سبيتا العربية الفصحى باللغة اللاتينية و تنبأ لها بالموت مثلما اقمها بالصعوبة و الجمود و حملها مسؤولية انتشار الأمية الى و افتقار البلاد ثقافة شعبية وعدم نمو الأدب الحقيقي و تطوره. » [18]

ولقد شارك في الدعوة الى العامة غير ولهلهم سبيتا كثير من رجال الاستعمار ومن العرب أيضا كشميل و سلامة موسي و حسن الشريف ، ومن البديهي القول أن البلاد العربية عرفة ما عرفته الساحة المصرية من ايلاء الأولوية للغة الأجنبية و يجعلها لغة المرافق الحكومية و بالتالي الطريق الوحيد لضمان المناصب الإدارية و غيرها ، كما أن من البديهي ملاحظة الارتباط بين الدعوة الى النهضة و الدعوة الى الاهتمام بالعربية و إنشاء مجمع علمي لها يحفظها من الهجنة و ينظم تعاملاقما مع اللغات الآخري.

في خاتمة حديثنا يجب أن نسجل أن مسألة العامية و الأدب الشعبي هي أمر طبيعي بالنسبة لأي مجتمع ولأي مؤسسة لغوية ، كما أن النتاج الأدبي بهذه اللغة الشعبية حقيقة لا ينكرها أحد علما أن مقياس التطور إليها هو الذي يحدد حجمها و الاتجاه الذي يراد السير فيه بهذه القضية نحو تصور ايجابي أو سلبي لها. و الغالب على الدرس الجامعي الأكاديمي الرصين هو اعتبار ما ينجم عن العامية نتاجا أدبيا شعبيا يحفل بمقومات هذا الشعب أو ذاك و يعكس عاداته و تقاليده. و يتمتع هو الأخر بمقومات الإبداع و بأشكاله المطردة و المشتركة القابلة لأن تستنبط فيها القواعد و بالتالي بإمكانية التنظير لها و دراستها دراسة علمية تكشف عن مقومات أنواعها و أشكال بنائها و التاريخ لنشأتها و تطورها و التمييز بين أغراضها المختلفة. فلقد صاحبت هذه الآداب المجتمعات في أفراحها و أتراحها و أحاسيسها و تناولت موضوعات عامة ذات طابع ديني أو سياسي أو تاريخي. كما جسدت الشؤون التفصيلية المتعلقة بطباع الناس و أخلاقهم و أحلامهم و أمالهم.

من هذا المنطلق يمكننا القول أن الآداب الشعبية قد أطرت الجانب الشعوري و النفسي في حالته الخاصة أو العامة للفرد أو للأمة. كما شكلت جزءا من الحافظة العامة و الذاكرة الجماعية للأمة بشكل ترتبت عنه ثقافة شفهية ساهمت في تحصين شخصية الأمة و حفظها من الضياع.

و لقد عالجت الآداب الشعبية كل هذه المواضيع بالأساليب المتعارف عليها في الأدب الرسمي فقدمتها في أساليب جادة أو هزلية متهكمة في قالب شفاهي أملته طبيعة تلك المواضيع كالمسرحيات و الأغنيات على الخصوص التي تقوم على المخاطبة و على وجود متكلم و متلقي.

مثل هذه النظرة الإيجابية للأدب الذي جاء ثمرة قريحة لغوية عامية هو ما حدا بكثير من الجامعات إلى إدراج الأدب الشعبي ضمن منظومة تكوينها.

الهوامش:

1- عبد المنعم تليمة مقدمة في نظرية الأدب ص 15 دار العودة بيروت 1983
2- المصدر نفسه الصفحة نفسها
3- المصدر نفسه ص 16
4- André Martinet: fonction et dinamique des langues Arnaud Colin Editeur Paris 89 P7
5- المصدر نفسه الصفحة 8
6- المصدر نفسه الصفحة 68
7- محمود تيمور. اتجاهات الأدب العربي في السنين المئة الأخيرة. مكتبة الآداب و مطبعتها بالجماميز. القاهرة. ص 46
8- حسان تمام. اللغة بين المعيارية و الوصفية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.1985. ص ص 184،185
9- المصدر السابق.ص 185.
10- هادي نور. علم اللغة الإجتماعي عند العرب. طبع الجامعة المستنصرية. بغداد.1988. ص 135.
11- ابن رشيق القيرواني، العمدة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط5 بيروت دار الجيل للنشر 1981 ج1 ص67
12- يمكن ملاحظة المسلك نفسه في الكثير من مناطق الوطن
عبد الواحد وافي. فقه اللغة دار نهضة مصر للطباعة والنشر ص 124.
13- المرجع نفسه ص 126
14- المرجع السابق ص 127
15 –عبد الواحد وافي مرجع سابق ص 149
16-جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية المجلد الثاني مكتبة الحياة بيروت ط2 1978 ص 14
17- المرجع نفسه ص 570.
18- نفوسة زكريا سعيد. عبد الله النديم بين الفصحى و العامية. الدار القومية للطباعة والنشر. سنة 1966. ص ص132-133